

المحاضرة الأولى:

بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي في الجزائر

تمهيد:

يمكننا تمييز توجهين رئيسيين للجهود المبذولة من طرف الباحثين الذين اتجهوا إلى جمع وتدوين ثم دراسة الشعر الشعبي دراسة تحليلية، وقد حظي الشعر بمكانة محورية في تاريخ العناية بمواد الثقافة الشعبية، فالمعروف أن هذه الثقافة في أغلبها ذات طبيعة شفوية- ومنها الشعر الشعبي- يتناقلها الأجيال شفاهة عن طريق الرواية، لهذا فمن الطبيعي أن تمر مثل هذه الدراسات بمرحلة الجمع والتدوين والتوثيق وتسجيل بعض الملاحظات. تليها مرحلة التصنيف والوصف والتحليل.

1- مرحلة الجمع والتدوين (نشر المدونات): تعود بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي إلى منتصف القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين، قصد التعرف على البيئة الشعبية الجزائرية، وانصب اهتمامهم بالشعر الذي يتناول وقائع الصدام المسلح بين الجزائريين والجيش الفرنسي، «واعتمده الباحثون الفرنسيون كمادة تصلح للكشف عن سلوك الإنسان الجزائري وردود أفعاله»¹، وهذا لاقتناع الباحثين الفرنسيين بأن الشاعر الشعبي كان يؤدي وظيفة المؤرخ في تناوله لمقاومة الجزائريين للاستعمار الفرنسي. كما أنهم اهتموا كذلك بالحقبة التركية، فجمعوا الأشعار التي تُؤرخ لوقائع الصدامات المسلحة التي وقعت جراء الحملات العسكرية التركية، كما اهتموا بالحروب التي كانت تقع بين المجموعات المحلية المشكلة للقبائل فيما بينها. وقد جمع هذا الشعر ونشر مترجما إلى اللغة الفرنسية، «نعثر عليه في الدوريات خاصة

1- عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص15.

المجلة الإفريقية أو في بعض المؤلفات»². ومن بين هذه المؤلفات والمقالات نذكر ما يلي:

1- قام الباحث الأمريكي هودقسون w.hodgson بتسجيل أقدم نصوص مدونة للشعر القبائلي، وهذا قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة ببضع سنوات³.

2- نشر الفرنسي أ.هانوطو سنة 1867 مؤلفا عنوانه: الشعر الشعبي في قبائل جرجرة **poesies populaire de la kabylie de jurjura**، صنف فيه الشعر القبائلي حسب مضمونه، «فخصص القسم الأول، وهو الجزء الهام من دراسته، للقصائد التاريخية والسياسية. وتناول في القسم الثاني بعض الشعر الغنائي وشعر الحكمة. وقدم في القسم الثالث بعض النماذج من الشعر النسوي»⁴. وكان تركيزه في الحديث عن موقف الجزائريين ورأيهم من الاستعمار الفرنسي في منطقة القبائل.

وقد استهل دراسته بقصيدة شعبية تصف رد فعل الأهالي عند سقوط مدينة الجزائر تحت ضربات المدفعية وهجوم العساكر على المدينة، واختيار مثل هذا النص يدل على الدوافع التي توجهه عناية الدارسين الفرنسيين بهذه الحقبة التاريخية، فبالنسبة إليهم يبدأ الشعر الشعبي من هذه اللحظة.

3- نشرت المجلة الإفريقية مقالات حول الشعر الشعبي في منطقة القبائل من تأليف رين. ل rinn.l و لوسيانى ج. د j.d luciani، وقد انصب اهتمامهما حول «القصائد التي قيلت حول ثورة المقراني، وبدا غرضهما السياسي واضحاً من خلال اختيارهما لنصوص تهجو من تزعم الثورة»⁵.

4- نشر الكسندر جولي Alexandre Joly في سنة 1900 مقالات عرف فيه بالشعر البدوي المتداول بين «البدو الرحل في بعض مناطق الهضاب العليا و الجنوب، وقد حاول تحديد أصنافه وقدم نماذج شعرية منه»⁶ قام بشرحها والتعليق

²-المرجع السابق، ص36.

³-أنظر،المرجع نفسه، ص38.

⁴-المرجع نفسه،ص38.

5-Rinn .l . deux chansons kabyles sur l'insurrection de1871.revue africaine.n311887.p55-71

⁶-عبد الحميد بورايو، المرجع السابق،ص39.

عليها، وقد ميز بين مجموعة من الأشكال الفرعية للشعر البدوي، مثل: القول، النم، القطاعة والرثوة أو المرثية... ويبدو هذا الباحث أنه الوحيد الذي لم يخضع بحثه للجانب السياسي والتاريخي، خاصة وأنه حاول إبراز الخصائص الشعرية عند شريحة واسعة من السكان هم البدو، كما أنه اهتم بالجوانب الجمالية للشعر البدوي، وهذا ما يعد سابقة في تاريخ الدراسات الشعبية.

5- و نشر فور بيقه **biguet faure** في سنة 1901 مدونة شعرية للشاعر الشعبي أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي 1583-1677، تضمنت قصيدته المطولة المسماة "العقيقة"، «نسبة إلى وادي العقيق في الحجاز»⁷ وهي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعد من الشعر الصوفي المتميز بمنظومته الرمزية، والتي نشرت بالجزائر مكتوبة باللهجة العربية مصحوبة بترجمة إلى اللغة الفرنسية.

6- وظهرت في سنة 1904 عدة مدونات شعرية، حيث عدت هذه السنة سنة ازدهار الشعر الشعبي، ومن بين هذه الانتاجات نذكر: كتاب "الديوان المغربي في أقوال افريقية والمغرب" لصونيك، وقد ضم قصائد ومقطوعات شعرية بعضها مجهول المؤلف وبعضها الآخر ينتمي إلى الشعر الغنائي لشعراء معروفين أو مجهولين.⁸

و«ظهر في نفس السنة كتاب "كشف القناع عن آلات السماع" لأبي علي الغوثي بن محمد»⁹، وقد اعتنى المدون بالشعر المغنى من طرف فرق الموسيقى الأندلسية والحوزي، ويميز بين الأشكال الشعرية المنتمية لكل من الأندلسي والحوزي والعروبي، كما قدم معلومات عن بعض الشعراء.

و طبعت في نفس السنة مجموعة شعرية عنوانها: "مجموع الأغاني والألحان من كلام الأندلس" ليافل ناثان إدموند **Yafil Nathan Edmond**. و نشر كتاب "مجموع أشعار قبائلية" لسي عمار بن سعيد بوليفة (1865-1931) ضم أشعار سي محند أو محند، وهورجل امتلك حظوة الموهبة ويعتد أكبر الشعراء في منطقة القبائل، والمكافح الذي يشرك أفراد شعبه الحياة المليئة بالغبن والأسى.

⁷-عباس الجراي،القصيدة ، الزجل في المغرب،مطبعة الأمنية، المغرب،ط1،1970م،ص604.

⁸-أنظر عبد الحميد بوراوي، المرجع السابق،ص46.

⁹-المرجع نفسه،ص47.

7- وقد ظهرت بعد هذه السنة في فترات متباعدة مدونات أخرى ككتاب: "الكنز المكنون في الشعر الملحون" لمحمد قاضي المولود سنة 1882م بالقلعة والمتوفي سنة 1942م بتلمسان. وفي نهاية سنة 1940 شرع محمد بخوشة في جمع الشعر الشعبي المعوف في تلمسان في الدواوين طبعها مطبعة ابن خلدون، وهي: ديوان بن مسايب (? - 1768)، وابن تريكي (1650-؟)، والمنداسي ولخضر بن خلوف. وكذلك ديوان قدور بن عاشور الزرهوني (1850-1938) وديوان بن سهلة. كما نشرت الشركة الوطنية للنشر ديوان الشاعر مصطفى بن براهيم.

كما ظهرت بعض الكتب المكتوبة باللغة الفرنسية مثل "الشعر الشعبي المغاربي ذي التعبير العربي الدارج" لمحمد حفناوي، و"انطولوجيا الشعر الشعبي الجزائري" لسهيل ديب.

2-مرحلة دراسة الشعر الشعبي ومناهج دراسته:

أ-الدراسة الميدانية: ويقصد بها التوجه إلى الميدان لجمع وتدوين مواد الدراسة من أفواه الرواة، بشرط أن يحدد الباحث طبيعة المنطقة التي يجمع منها مادته الأدبية، وتحديد جغرافيا، ويجد أن يكون الباحث منتما إلى تلك المنطقة حتى يتسنى له فهم اللهجة المتداولة وبالتالي فهم المادة الشعرية التي يجمعها، كما يمكن للباحث تقديم صورة شاملة عن الحركة الشعرية في المنطقة. وكنموذج عن هذه الدراسة نذكر دراسة أحمد لمين الموسومة ب: الشعر الشعبي في سيدي خالد(ولاية بسكرة) من 1850 إلى 1950، وعلاقاته بالتراث الثقافي العربي الإسلامي والتي كتبها باللغة الفرنسية:

Poésie populaire Algérienne a Sidi Khaled et sa région (W.Biskra-Algerie) de 1850 a1950 et ses relations avec la patrimoine culturel arabo-islamique.

هذه الدراسة هي عبارة عن رسالة دكتوراه تحت إشراف جون مولينو من كلية الآداب، جامعة إكس مرسيليا، سنة 1983. وتضمنت المعطيات الجغرافية والاجتماعية لمنطقة سيدي خالد بسكرة، بالإضافة إلى إحاطتها بالحياة الثقافية والأدبية للمنطقة،

وهذا في الفترة الممتدة من سنة 1850 إلى 1950. و تطرق الباحث فيها أيضا إلى وصف المدونة وتقسيمها وفق موضوعاتها، ثم دراستها موضوعاتيا.¹⁰

ب- الدراسة الفنية: وهي الدراسات التي ترصد الخصائص الشعرية بالوزن والقافية والإيقاع، كما تهتم بالبناء الشكلي للقصيدة. ومن نماذج هذه الدراسة نذكر الدراسة التي قام بها أحمد طاهر الموسومة ب: الشعر الشعبي الجزائري (الملحون): إيقاعه، بحوره وأشكاله. وهي عبارة عن رسالة دكتوراه، قدمت في جامعة السوربون بباريس.

قام فيها الباحث بمسح شامل للنظريات التي سبقته حول أوزان وإيقاعات وقوافي الشعر الشعبي في منطقة الغرب الجزائري بالتحديد، وقد وصل إلى نتيجة مبهرة، مفادها التمييز بين نمطين من الشعر من حيث الإيقاع والوزن والقافية، هما:

1- الشعر المقطعي Strophique، وهو متصل بالموشحات والأزجال الأندلسية، ومتطور منها، أو هو الصورة الشعبية لها.

2- الشعر القائم على التناظر الوزني Isométrique، وهو قريب من شكل القصيدة العمودية في الشعر العربي القديم.¹¹

ج- الدراسة السوسيوثقافية: وهي نوع من الدراسة التي تنظر في المعطيات السوسيوثقافية وتعتمدها لتفسير الظاهرة الشعرية في منطقة ما من المناطق لها خصوصياتها الاجتماعية والثقافية المفارقة لمناطق أخرى. ونموذجها ما قامت به الباحثة تسعديت ياسين في دراستها الموسومة ب: الشعر البربري والهوية،

Poésie Berbère et Identité, Qasi Udifella, héraut des Sidi Braham

قامت فيها بتتبع ودراسة الإنتاج الشعري لشاعر من منطقة القبائل الصغرى، وعدته ناطقا بلسان الجماعة الاثنية التي ينتمي إليها، وهي القبائل. كما أن الشاعر كان ينتمي إلى جماعة فرعية، هي جماعة المرابطين، الذين يمثلون تشكيلة اجتماعية لها

¹⁰- أنظر، عبد الحميد بورايو المرجع السابق، ص 50.

¹¹- أنظر، المرجع نفسه، ص ص 50-51.

وضعها الخاص داخل المجتمع القبائلي، وهي الخصوصيات التي استشفتها الباحثة من خلال أشعاره، كالتنشئة الدينية والتشعب بأفكار جمعية العلماء المسلمين، والنضال من أجل بسط أفكارها الدينية في المجتمع الجزائري.¹²

د- الدراسة التكاملية: هذا النوع من الدراسات استطاع الجمع بين الدراسات الثلاثة السالفة الذكر، كالدراسة التي قدمها الأستاذ مراد يلس شاوش الموسومة ب: الحوفي: الشعر النسوي والتقاليد الشفوية في المغرب، **Le Haufi :Poésie féminine et tradition orale au Maghreb.**

اتبع فيها الباحث الخطوات التالية:

الجمع الميداني للمادة الشعرية(الحوفي) في مدينة تلمسان. ثم تتبع التطور التاريخي لهذا النوع من الشعر الشعبي، حيث رصد أربع مراحل هي:

أ- القرن 09 م: بدأ المزج بين بعض الأداءات الصوتية المواكبة لبعض الطقوس السحرية بأداءات الموالم الوافد من المشرق.

ب- القرن 11م: نمو هذا الشكل بتأثير المسمط وعروض البلد الناشئ في المغرب الأقصى.

ج- القرن 13: تحدد كفن رجالي، وهو عبارة عن مقطوعات متفاوتة الطول، موضوعها الغزل.

د- القرن 15: استغل من طرف التجمعات النسائية في تلمسان، ليصبح فنا نسائيا.

ثم قام بدراستها دراسة آنية كشف من خلالها عن بنية هذا الشكل الشعري، الذي يعتمد على وحدات شعرية عشرية المقاطع، وتركيبه النغمي يقوم على خمس مقطوعات متميزة، معتمدا على النمط الرباعي. وهو يعمل على نقل معارف موروثية وفق مشروع إيديولوجي مركزي يسعى المجتمع لتلقيه للأطفال.¹³

¹²-أنظر، المرجع السابق، ص 51.

¹³-أنظر المرجع نفسه، ص 52-53

المحاضرة الثانية:

الشعر الشعبي وإشكالية المصطلح والمفهوم

تمهيد: اختلف دارسوا الأدب الشعبي حول التسمية التي يمكن أن يطلقوها على هذا النوع من التعبير الشعبي، الذي تباينت مصطلحات تسميته، من شعر شعبي إلى ملحون أو عامي أو زجل... وقد حاول المختصون توضيح هذه الحدود توضيحا ينم عن اختلاف كبير بينهم حول التسمية والمفهوم، كقول بعضهم بأنه مرتبط بالعامية والرواية الشفوية، ومجهولية المؤلف، وربط البعض صفة الشعبية بالعراقة والقدم والتعبير عن الضمير الجمعي ودعوتهم للاهتمام بالنص في ذاته بدل الاهتمام بمؤلفه.

1- الشعر الشعبي:

الشعر الشعبي فرع من فروع الأدب الشعبي العام، وينطبق عليه ما ينطبق على هذا الأدب من مميزات، تجعله مختلفا عن الأدب العام، وأطلق الباحثون عدّة تسميات على الشعر الشعبي، واختلفت «باختلاف الإطلاق الذي شاع استعماله في البيئة المحلية، أو حسب اجتهاد الباحث واختياره لهذا المصطلح أو ذاك» (1).

حصر بعض الدارسين الشعر الشعبي في النوع الذي يجهل قائله، وهناك من ذهب إلى القول بأنه الشعر الملحون، ويخصّ في ذلك الشعر دون النثر، كما ذهب البعض إلى إطلاق مصطلح الرّجل

1 - التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الثورة (1830م - 1945م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1983م، ص 365.

«على الشعر الشعبيّ في بيئة من البيئات، ولكنه لا ينطبق على شعر بيئة أخرى، لاختلاف الأوضاع الثقافية والسياسية، التي تؤثر في التعبير الشعبيّ»(2).

وقد اتفق الباحثون على توفر أربع شروط أو خصوصيات في الشعر الشعبي وهي: مجهولية المؤلف، وعامية اللغة، والاعتماد على الرواية الشفوية، والتوارث جيلا بعد جيل. وهي نفس خصوصيات الأدب الشعبي، وهو مصطلح مستعار من الكلمة الغربية فلكلور التي تعني حرفيا حكمة أو الشعب. لكن يصادف الباحث هنا الإشكالية، هو أن أغلب النماذج التي وصلت إلينا من هذا الشعر قديمه وحديثه لا تتوفر فيه جميع هذه الشروط، خاصة ما يتعلق بمجهولية المؤلف، فأغلب النماذج التي وصلتنا معلومة المؤلف، والنماذج المجهولة المؤلف قليلة مقارنة بها، وهو الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى تبني مصطلحات أخرى كالشعر الملحون والزجل... في حين أصر البعض الآخر على هذه التسمية (الشعر الشعبي)، ودعوا إلى فهم آخر لكلمة الشعبي، يتجاوز الشروط الأربعة السالفة الذكر، إلى مميزات أخرى مثل كونه: ملكا للشعب، وهو نتاج استعمال الشعب ولا يستعمل في الأوساط البرجوازية وعند المثقفين، بالإضافة إلى أنه يتوجه إلى الشعب.

يتبنى التلي بن الشيخ تسمية الشعر الشعبي لأنها تتطابق مع مفهوم الطبقات الشعبية لهذا اللون من التعبير أكثر من غيره من المصطلحات الأخرى مثل الملحون والعامي والزجل، وبذلك فهو يختلف مع المرزوقي وعبد الله ركيبي في الرأي حيث يقول: "وبالرغم من أنّ الشعراء الشعبيين قد أطلقوا على الشعر تسميات مختلفة، فإننا نميل إلى الاعتقاد، بأنّ تسمية الشعر الشعبيّ تتطابق مع مفهوم الطبقات الشعبيّة لهذا اللون من التعبير، أكثر من غيره من المصطلحات الأخرى، مثل الملحون، والعامي، والزجل..."(3).

2 - المرجع نفسه، ص 366.

3 - التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص 386.

كما يجب مراجعة مفهوم الشعبية وتحديد شعبية الأدب ينبغي أن ينصب على النصوص أكثر من الاهتمام والتمسك بصاحبه، سواء كان مجهولاً أو معروفاً، قديماً أو حديثاً، والمهم أن يكون شائعاً بين الأوساط الشعبية، ومعبراً عن آمالهم وآلامهم.

2- مصطلح الشعر الملحون:

ومن بين المصطلحات التي جلبت اهتمام الباحثين مصطلح "الملحون"؛ لأنه أكثر شيوعاً وشهرة، وقد عرّفه المرزوقي بقوله: «إنّ الشعر الملحون الذي نريد أن نتحدث عنه اليوم، فهو أعمّ من الشعر الشعبيّ، إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية، سواء معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكاً له، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه أي أنه نطق بكلام عامي أو بلغة عامية غير معروفة»⁴.

فهو يرى بأن الشعر الملحون أعم من الشعر الشعبي، إذ يشمل كل منظوم بالعامية سواء كان مجهول المؤلف أو معلومه، وسواء روي من الكتب أو مشافهة، وسواء شاع في حياة الشعب فأصبح ملكاً للشعب أو كان من شعر الخواص.

والملاحظ في هذا القول أنّ المرزوقي قد ألمّ على التعريف، كما يبدو هذا التعريف هو الأصح، لكن النقطة التي تثير الانتباه هي أن الشعر الشعبي لا يخضع لقواعد اللغة من نحو وصرف، وهو ما أشار إليه عبد الله ركيبي: «لما كان الشعر الملحون- في معظمه- تقليداً للقصيدة المعربة فإن الفرق بينه وبينها هو في الإعراب، فهو إذن من "لحن" في الكلام إذا لم يراع الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة»⁵.

4 - محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط5، 1967م، ص51.

5 - د. عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث (الشعر الديني الصوفي)، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، (د.ط)، 2009م، ص361.

فالمرزوقي قصد النظر إلى وصف لغة هذا الشعر التي تتسم باللحن والتكسير والعدول، فاللحن هو النطق باللغة العربية الفصيحة بلهجة غير معربة، بمعنى مخالفة قواعد الإعراب المعروفة في الفصحى.

ويفضل عبد الله الركيبي مصطلح الشعر الملحون دون غيره من المصطلحات تماشياً مع ما شاع في البيئة الأدبية في الأقطار المغاربية، كما أنه يرى بأن إطلاق صفة الشعبي عليه قد يوحي بأنه مجهول المؤلف، والشائع أن صفة الشعبية تنصرف إلى ما له عراقة وقدم، وإلى ما يعبر عن روح جماعية بالكلمة، حيث يصبح الشعر تعبيراً عن وجدان الشعب وقضاياها دون اهتمام بقائله، وعليه فمصطلح الملحون هو الأجدر بهذا الشعر، ذلك لأن الملحون تقليد ومحاكاة للقصيد المعربة، فإن الفرق بينه وبينها هو الإعراب، فهو من لحن يلحن في الكلام، إذا لم يراع الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة، بالإضافة إلى أن أصحابه معروفون عكس الشعر الشعبي الذي غالباً ما يكون أصحابه مجهولون، لكن شرط معرفة الشاعر غير كاف لإطلاق تسمية الملحون على هذا الشعر، فهناك نماذج ينطبق عليها مصطلح الشعر الشعبي رغم أنها معلومة المؤلف لأنها شاعت بين الناس فأصبحوا لا يهتمون بقائلها قدر اهتمامهم بها.

أما عباس الجراري فيرى بأن الشعر الملحون ينظم قبل كل شيء لكي يغنى، بمعنى أن هذا الشعر ينظم لكي يلحن ويغنى بعدها، فحق تسميته بالشعر الملحون، ويقول في ذلك: «ولعلنا قبل الانتقال إلى الألفاظ الأخرى التي أطلقت على هذا الشعر، أن نقف قليلاً عند أصل التسمية بالملحون. والحقيقة أن محاولة التعليل أمام افتراضين مصدرهما معنيان من معاني اللحن، هما الغناء والخطأ النحوي»⁶ ويستند في قوله إلى رأي الاستاذ محمد الفاسي الذي يستبعد أن تكون التسمية مشتقة من اللحن بمعنى الخطأ لما قال: «والحقيقة أن لفظة الملحون هنا مشتقة من اللحن بمعنى الغناء لأن الفرق الأساسي بينه وبين الشعر العربي الفصيح أن الملحون ينظم قبل كل شيء لكي يغنى به»⁷

6- عباس الجراري، القصيدة(الزجل في المغرب)، ص55.

7- نقلاً: عباس الجراري، المرجع نفسه، ص55.

وخلاصة القول أن إشتراك الباحثين في التسمية لا يعني أنهما متفقان في المفهوم، فاشتقاق كلمة الملحون من "الحن" تعطينا فكرة أن الشعر الملحون يستعمل لغة غير سليمة، كما يدل على أنه إنتاج شعريّ نظم من أجل الغناء واللحن.

3- الزجل:

اقترح الباحث المغربي عباس الجراري مصطلحا آخر غير مصطلح الشعبي والملحون، ليطلق على هذا الشعر بتسمية الزجل، وغايته بذلك توحيد المصطلح في الأقطار العربية عموما والمغربية خاصة، نظرا إلى شيوع استعمال هذا النوع الشعري بهذه التسمية في معظم البلاد العربية. يقول في ذلك: «فإننا نفضل إطلاق الزجل على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي وندعو إلى هذه التسمية بدلا من أي تسمية أخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار»⁸.

لكن الملاحظ أن هناك تباينا واختلافا في تسمية هذا النوع الشعري، فهناك من يطلق عليه تسمية: الحميني والمبيت والموشح والقصيد والأغنية...بالإضافة إلى أن عبد الله الركبي يرى أن تسمية الزجل تدل على أنه تقليد شعبي للموشح، أو هو صورة منه، غير أنه كتب بلهجة عامية، متخذا شكل الموشح، كما أنه يتناول موضوعات تطرق الوشاحون إليها، فهو يخالف عباس الجراري في إطلاقه الزجل على الشعر الشعبي، و يميل إلى إطلاق مصطلح "الملحون" على الشعر؛ لأن التسمية بالنسبة له: «لا تتعارض كثيرا مع بقية المصطلحات، فهي وإن اختلفت معها في بعض ما ذكرنا فإنها تتفق معها في السمة الغالبة على هذا الشعر، وهي أن روحه ولغته عامية في معظمها، ولكنها تعدّ تسمية خاصة بالقياس إلى مصطلح "الشعر الشعبي" مثلا، الذي هو أعم وأشمل من المصطلحات الأخرى»⁹.

وهو نفس رأي أحمد طاهر الذي يرى أن هناك نوع من الشعر الشعبي ينتمي في أصوله ونظمه وشكله ووزنه وفي خصائصه الفنية إلى الأزجال والموشحات، لكن هذا لا يبرر إطلاق المصطلح على

8 - عباس الجراري، الزجل في المغرب" القصيدة، مطبعة الأمنية، المغرب، ط1، 1970م، ص54.

9 - عبد الله ركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص364.

الشعر الشعبي ككل بل فقط على القصائد التي تحاكي الموشح في شكله ونظمه.. فهناك شعر شعبي يستمد شكله من القصيدة العربية القديمة، وهو ما يطلق عليه كذلك تسمية شعر الأعراب أو الشعر البدوي.

إنّه من الصعب تقديم تعريف موحد وأحاديّ للشعر الشعبي؛ لأنّ معظم التعاريف السابقة تثبت أحقية التسمية للمصطلح عن آخر، لكن الرأي الصواب هو لكلّ منطقة وتسميتها الخاصة.

4- شعر الأعراب أو الشعر البدوي:

وهو تسمية من تسميات الشعر الشعبي، وتطلق على شعر البدو، الذين احتفظوا في المراحل الأولى بالسليقة العربية السليمة، إلى أن تسرب اللحن إلى لغتهم شيئاً فشيئاً، وكان أول ظهور له في حديث عن الشعر البدوي لبعض العرب الرحالة في الجنوب الجزائري للمستكشف بعد معاشتهم لمدة طويلة، و الذي نشر في المجلة **Alexandre Joly** الفرنسي ألكسندر جولي الإفريقية»¹⁰. تحدّث هذا الأخير عن بعض الأنواع التي يمكن أن نضعها في باب الشعر البدوي، في عموم البوادي العربية، أما في المناطق التي انتقلت إليها القبائل العربية، فقد أخذت عربيتهم تختلط باللهاجات المحلية فدخلها اللحن، كما حدث في بلاد المغرب حينما استقرت بها قبائل هلال وسليم، فلم يبق مكان للشعر الفصيح إلا في المدن والحواضر حيث النخبة المثقفة ودواليب السلطة. بيد أنه لا يمكن إطلاق هذه التسمية على عموم الشعر الشعبي نظراً لعدة اعتبارات، منها وجود شعر آخر حضري (شعر المدينة) ولا علاقة له بشعر الأعراب، بالإضافة إلى التسمية في حد ذاتها والصادرة عن أهل الحواضر بغاية القدر بهذا الشعر الذي ينعت أهله بغلظة الطبع، كما أننا لا نجد هذا المصطلح إلا عند المرزوقي وقد خص به اعراب بني هلال في بلاد المغرب. أما في المشرق فإنهم استعملوا مصطلحاً آخر هو الشعر النبطي.

-خلاصة:

-10 - Joly (Alexandre). «Remarques sur la poésie moderne chez les nomades Algériennes».

In Revue Africaine, Alger : OPU, Revue Annuaire, N° 44, année 1900, deuxième édition, 1996, P 283.

مهما اختلفت تسميات هذا الفرع من الأدب الشعبي فإن التسمية الجامعة للمفهوم هو الشعر الشعبي سواء ما كان معروف المؤلف أو مجهوله، فالمهم هو ان يكون منتشرا وشائعا بين الطبقات الشعبية البسيطة وأن يكون معبرا عن مشاغل وهموم وآمال هذه الطبقات، كما يجب ان يكون موجها إليهم ومعتمدا على لغتهم متضمنا لاهتماماتهم، معالجا لهمومهم ومشاكلهم.

المحاضرة الثالثة

تاريخ ظهور الشعر الشعبي الجزائري

النشأة والتطور

توطئة: يكاد يجمع أغلب الدارسين إلى أن الشعر الشعبي الذي وصل إلينا يعود في أصوله إلى الموشحات الأندلسية (الشعر الحضري) والقصائد الهلالية (الشعر البدوي)، يقول رابح بونار: «إن الشعر الشعبي الذي تحدر إلينا من شعرائنا الماضين ينقسم إلى نوعين: الشعر البدوي وهو نوع من الشعر الهلالي، له خصائصه وسماته، والشعر الحضري، وهو نوع من الموشحات والأزجال، وله كذلك خصائصه ومميزاته»¹ وهذا ما يؤكد أحمد طاهر، حيث ميز بين نوعين من الشعر، هما: «الشعر المقطعي Strophique، وهو شديد الصلة بالموشحات والأزجال الأندلسية. والشعر القائم على التناظر المقطعي isométrique، وهو قريب جدا من شكل القصيدة العربية العمودية في الشعر العربي التقليدي»². وانطلاقا من الرأيين نستخلص أن الشعر الشعبي الجزائري يعود ظهوره إلى التأثير الشرقي، من خلال نزوح قبيلة بني هلال وسليم من المشرق إلى المغرب العربي، ثم التأثير الأندلسي، وهما من أكثر العوامل المؤثرة في ظهور الشعر الشعبي الجزائري.

لكن وقبل الحديث عن هذه المسألة يستوقفنا التساؤل عن وجود الشعر الشعبي قبل المرحلة الهلالية وقبل الفتح الإسلامي، ونقصد -طبعاً- الشعر الأمازيغي، ألم يسبق هذا الشعر في الظهور تاريخيا الشعر البدوي (الهلالي)، والشعر الحضري (الأندلسي)؟.

أ- الشعر قبل الفتح الإسلامي:

انقسمت الآراء حول وجود الشعر الشعبي الجزائري والقبائلي على وجه الخصوص قبل الفتح الإسلامي والهجرة الهلالية إلى ثلاثة أصناف:

1- يرى أصحاب الرأي الأول أن القصيدة الشعرية الشعبية وجدت قبل الفتح الإسلامي، معتبرين أصولها منحدره من الشعر الأوروبي والبربري القديم. ومن بين هؤلاء الباحثين نجد

1- نقلا: عبد الحق زربوح، دراسات في الشعر الملحون الجزائري، مع قصائد مختارة غير منشورة، دار الغرب للنشر والتوزيع،

(د.ت)، ص 19 .

2- عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2007م، ص 51.

جوزيف ديسبارمي، الذي يرى بأن: «الشعر المغربي بصفة عامة والشعر الجزائري على وجه الخصوص إنما يستمد أصوله البعيدة من أشعار بربرية، وقبل احتلال الرومان للجزائر»³، وهو الرأي الذي يسانده كذلك ألبيرت قيمي الذي قال: «إن الشعر كان موجودا دائما في الجزائر»⁴. ولكن ما قد يعاب على رأي هؤلاء هو أنهم انطلقوا من فرضيات مجردة، لم يثبتوها بالنصوص الشعرية الكافية، «لأنهم أعطونا نصوصا بلهجة بربرية فعلا، ولكن مضمون هذه النصوص كان إسلامي»⁵، ما يعني أنها ظهرت بعد الفتح الإسلامي وليس بعده. ويرجع بعض الباحثين أول ظهور للشعر العامي في الجزائر إلى عصور قديمة، إلى أن تصل إلى العصر الجاهلي ممثلة في تلك «الأراجيز المنظومة بلهجات غير فصيحة في العصر الجاهلي»⁶. لكن هذا النوع لا ينطبق على الشعر الشعبي المعروف في الجزائر لأن هذه اللهجة تعتبر عند أهلها فصيحة لكن اللهجة العامية الموجودة في الجزائر هي لهجة غير معربة أي مخالفة لقواعد اللغة.

2- يرى الفريق الثاني وعلى رأسهم عبد الله ركيبي أن الشعر الشعبي كان موجودا «مع الفتح الإسلامي ثم انتشر بصورة قوية واضحة بعد مجيء الهلاليين»⁷. ولكنه اندثر بعد الفتح الإسلامي، لأنه يتنافى مع المعتقد الجديد، الذي يحمل ثقافة جديدة، والمجتمع الجديد الذي ينشده الإسلام.

3- أما أصحاب الرأي الثالث فهم يذهبون إلى أن الشعر الشعبي ظهر في الجزائر مع الزخفة الهلالية على الجزائر، وتعريبهم للمنطقة المغاربية.

-ب- أثر الهجرة الهلالية في نشأة الشعر الشعبي:

يذهب المرزوقي إلى أن الشعر الشعبي قد ظهر في الأقطار المغاربية مباشرة بعد استقرار بني هلال وسليم في شمال إفريقيا، يقول: «لم يترك لنا التاريخ أي أثر لشعر منظوم باللغة الدارجة (الشعر الشعبي)

3- نقلا: العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، الجزء 1، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، 1989م، ص ص: 32-33.

4- نقلا: المرجع نفسه، ص 33.

5- محمد دبوب، تاريخ الأدب الكبير، مطبعة عيسى البابلي وشركائه، ط1، 1964، ص ص: 49-61.

6- محمد المرزوقي، الشعر الشعبي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967م، ص 52.

7- عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث (الشعر الديني الصوفي)، الجزء 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، 366.

قبل منتصف القرن الخامس الهجري، أي قبل الزحف الهلالية سنة 443 هجرية (...). ودخول الهلاليين إلى المغرب العربي كان له أثر كبير في الحياة الثقافية والفكرية في المغرب العربي»⁸. وهذا ما يؤكد التلي بن الشيخ في قوله: «والراجح أن العامل الذي كان له الأثر الكبير في ظهور الشعر الشعبي هو هجرة القبائل الهلالية في منتصف القرن 5هـ، بحيث يمكن القول بأن دور الهلاليين -بالإضافة إلى أنهم قاموا بدور كبير في تعريب الجزائر- فقد أسهموا في بلورة الشعر الشعبي»⁹. ويضيف التلي بن الشيخ في ذلك بقوله «أن قبائل بني هلال كانت خليطاً من القبائل العربية ذات لهجات مختلفة، ما ساعد السكان على تقليد هذه اللهجات وإتقانها باعتبارها لهجات لا تتطلب معرفة الكتابة مثل اللغة العربية»¹⁰. ونظم الأشعار على منوالها، كما شجع الجو الديني السائد في القبائل الهلالية وفتور الحماس الديني إلى استرجاع الماضي ونظم الشعر الشعبي من جديد، ويستشهد المرزوقي فيما قاله بوجود أول نص وصل إلينا من الشعر الشعبي والذي المطلعه:

غربوك لجمال يا حفصة من بلد بعيد
من سجلماسة وقفصة* وبلاد الجريد¹¹

ويعقب التلي بن الشيخ على هذا قائلاً: «إن المرزوقي يحدد ظهور الشعر الشعبي إلى منتصف القرن 05هـ، ولم يورد نصوصاً من الشعر تدعم تحديد هذا التاريخ فقد اكتفى بمطلع واحد يرجع إلى العهد الحفصي، أي بعد قرنين من تاريخ دخول بني هلال وسليم إلى المغرب العربي»¹²، ولهذا يمكن القول بأن تطور الظروف الاجتماعية والسياسية وما أدخله الهلاليون من لهجات غير معربة كان من بين العوامل المساعدة على عودة وانبعث الشعر الشعبي، مثلما كان عليه قبل الفتح الإسلامي، بمعنى أن الشعر الشعبي كان موجوداً ثم اندثر بعد الفتح الإسلامي، ليعث من جديد مع الهجرة الهلالية.

ج- التأثير الأندلسي في الشعر الشعبي:

⁸ -محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص57.

⁹ -التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830م-1945م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص392.

¹⁰ -التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص25.

* -أسماء لقرى في جنوب التونسي، ويوجد بها النخيل، زبيدوا أن حفصة هو اسم لنوع من التمور.

¹¹ -التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، ص26.

¹² -التلي بن الشيخ، المرجع نفسه، ص26.

يذهب المرزوقي في اعتقاده إلى أنه كان للهجرة الأندلسية أثر بالغ في انبعاث الحركة الشعرية الشعبية في الأقطار المغاربية عموماً وفي الجزائر خصوصاً، رغم افتقاده للأدلة التاريخية على هذا الاعتقاد، ويرجح رأيه نظراً لوجود ظاهرتين ثقافيتين كان لهما الأثر الجلي في الثقافة الجزائرية:

1- ابتكر أهل الأندلس الزجل كشكل شعبي للموشح، «وقد اشترطوا في نظمه أن يكون بلهجة عامية، خالية من قواعد الإعراب، وهو ما سهل على الشاعر الشعبي تقليد الزجل والنظم على منواله»¹³. ولا يزال تأثير الزجل مستشرباً ومنتشراً في الثقافة الجزائرية، خاصة الثقافة الغنائية، حيث لازالت الفرق الموسيقية الأندلسية منتشرة في ربوع الجزائر، خاصة وأن الأغنية الموسيقية كثيراً ما خدمت الشعر الشعبي خدمات جليلة، أتاحت انتشار هذا الشعر وحافظت عليه من الضياع.

2- لقد كان من بين مهاجري الأندلس علماء وأدباء كان لهم دور هام في نقل الثقافة والأدب من الأندلس إلى شمال إفريقيا، كما أنهم لم يدخلوا البلاد محاربين أو تحت تأثير ظروف سياسية، مثلما هو الحال بالنسبة للهلاليين الذين دخلوا البلاد تنفيذاً لخطة سياسية، وعليه فإن تأثير مهاجري الأندلس في الحياة الثقافية والأدبية لم يرقم على الإكراه والقهر والحروب كما فعل بنو هلال، لهذا فقد بقي تأثير مهاجري الأندلس إلى يومنا هذا، بينما أفل أثر الهلاليين.

¹³-التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص26.